

الفصل الثالث

ظهور الاءسلام

كان محمد (ص) في الأربعين من عمره ، عندما هبط عليه للوحي وهو يتعبد ويتأمل في غار حراء ، وبعد أن أعدته للعبادة الألهية إعداداً روحياً وفكرياً لهذه الساعة العظيمة . وكان بدء نزول الوحي يوم الاثنين ، ١٧ رمضان ، وتراءى له جبريل فقال له : « اقرأ » . فأجاب : « ما أنا بقاريء » ، فشده جبريل إليه ، وأعاد عليه للقول ، وأجاب محمد (ص) نفس الجواب ، فشده ثانية بقوة ، ثم أطلقه ، وقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . فكانت هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم

أصيب محمد (ص) ، على أثر نزول الوحي عليه ، باضطراب وفزع شديد ، وأسرع إلى زوجته الحنون ، وهو يقول : « زملوني ، زملوني » فزملته ، حتى ذهب عنه لروع ، وبدأت نفسه ، فقص على خديجة ما حدث له ، وما سمع ، وقال : « قد خشيت على نفسي » . ولكن خديجة ،

بقلبها الكبير، وفكرها الثاقب، ونفسها المطمئنة، أجابته: «ابشر، يا ابن عم، واثبت، فولدني نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وشعر محمد (ص) بالراحة، واطمأن إلى كلام خديجة، ثم انطلقت به إلى ابن عمها، ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً يحفظ الإنجيل.

فأخبره محمد (ص) بما حدث له في الغار، فقال ورقة: «هذا للناموس (الملك)، والذي نزل على موسى، يا ليتني كنت فيها جذعاً، إذ يخرجك قومك». فقال محمد (ص): «أو مخرجي هم؟» فأجابه ورقة: «لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومي، أنصرك نصرًا مؤزرًا». وازداد محمد (ص) بعد أقوال ورقة، اطمئناناً. أما ورقة فلم تطل أيامه، بل مات، بعد قليل.

ولما نزل الوحي مرة أخرى، أصابت محمد (ص) حالة من الفزع، إثر رؤيته ذلك الملك، فأسرع، من الغار إلى الدار، وهو يقول: «دثروني، دثروني». فجاءه الوحي يقول: (يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فأهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر). وبذلك صدر الأمر الإلهي إلى محمد (ص) أن يبدأ دعوته، وينذر قومه، ويكبر ربه.

وكان من الطبيعي أن يؤمن بدعوة الرسول (ص) أهل بيته: خديجة، وزوجه الوفيه، وعلي بن أبي طالب، ابن عمه المخلص، وزيد

بن حارثة ، المولى ، الذي تبناه محمد (ص) وكيف لا يؤمن هؤلاء ؟
وهم الذين عاشوا مع محمد (ص) في دار واحدة ، وعرفوا أمانته ،
وعظم خلقه ، وسمو نفسه ، فأحبوه حباً جما . وهكذا تكررت أول خلية
دخلت في دين الله :

وانطلق محمد (ص) إلى مبدان جديد إلى أصدقائه المقربين ،
وأقربهم إليه أبو بكر بن أبي قحافة ، فقص عليه الخبر ، ودعاه إلى عبادة
الله وحده ، وترك ما يعبد للقوم من أصنام وأوثان . وسرعان ما صدق
وآمن ، لأنه عرف ، قبل ذلك اليوم ، حقيقة صديقه ، محمد (ص) ، وما
يحمل بين جنبيه من أمانة وصدق واستقامة . وكان أبو بكر تاجراً ،
عرف بحسن خلقه ومعاملته ، كما كان عالماً بأنساب قريش ، وكان له أثر
كبير في الدعوة الإسلامية . حيث أسلم على يديه كثير من الرجال ،
أشهرهم : عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، ولزير بن العوام
وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . وتلاه هؤلاء في اعتناق
الإسلام ، والإيمان بنبوة محمد (ص) : أبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم
بن أبي الأرقم ، الذي جعلت داره مركزاً لبث الدعوة ، واجتماع
المسلمين .

استمرت للدعوة سرية ثلاث سنوات ، يدعي إلى الإسلام من
يوثق به من الأفراد ، ويطمأن إلى تليته ، وحسن استعدادده . وكان
المسلمون يصلون في بيوتهم ، أو في بعض للشعاب ، أو في دار الأرقم ،
ويرتلون ما يتلوه عليهم رسول الله (ص) من الآيات ، التي يهبط بها

للوحي عليه .

وبعد ثلاث سنوات من بدء للبعثة ، أمر النبي (ص) أن يجهر
بالدعوة : (فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك
المستهنزين) ، كما أوحى إليه أن (أنذر عشيرتلك الأقربين ، واخفض جناحك
لمن اتبعك من المؤمنين ، فأنعصوك ، فقل إني بريء مما تعملون) وأخذ
محمد (ص) يسلك طريق الجهر بالدعوة ، برفق ولين ، وصنع طعاماً
ودعا إليه بني عبدالمطلب ، ووقف للرسول (ص) يدعوهم إلى الإسلام
ويقول (إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتم به ،
إني قد جئكم بخير الدنيا والآخرة) . فانصرف معظمهم مستهزئاً ، ساخرأ .
ثم دعا بطون قريش ، فاجتمعت في ظاهر مكة ، وقال لهم (أرايتم
لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟) قالوا
« نعم » ، « ما جربنا عليك كذباً » . فقال : (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ،
إن لله أمري أن أنذر عشيرتي الأقربين ...) . ونهض عمه ، أبولهب ، غاضباً
وهو يقول « نبأ لك ، لهذا جمعتنا ؟ » فنزل فيه قول الله تعالى : (تبت
يذا أبله ولب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيهلي نارا ذات لهب) .
وأخذ محمد (ص) لا يترك مناسبة إلا ويقف محذراً قومه من يوم (لا ينفع
فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) ، (يوم يكون للناس
كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . ثم يبين لهم أنه
لا ينفع يومئذ إلا العمل للصالح ، يوزن في ميزان للعدالة الإلهية « فأما
من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه

هاوية ، وما أدراك ماهيه ، نار حاميه » . ويضرب لهم الأمثال
بمن كفر من الأقوام الأولى : (ألم تركيف فعل ربك بعـاد ،
إرم ذات اللـعاد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود للذين
جاءوا للصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، للذين طغوا في البلاد
فأكثروا فيها للفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك
لبحر صاد) . وبذكرهم بنعم الله عليهم . فيقول : (فليعبدوا رب هذا البيت ،
للذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف) .

أخذ الإسلام طريقه إلى القلوب ، وبدأت دار الأرقم تستقبل
كل يوم وجهاً مؤمناً جديداً ، يزيد في عدد المسلمين وقوتهم . ورأى
زعماء قريش في استمرار الدعوة خطر أهدد أصنام الكعبة ، وآلهة
للعرب ، ويفقد مدنيتهم ، مكة . مركزها الديني ، وبالتالي يفقدهم المكانة
للسامية بين القبائل ، باعتبارهم حماة مكة ، وسدنة كعبتها ، كما يفقدهم
الأرباح الطائلة ، التي تتدفق ، كل عام ، في موسم الحج ، إلى جيوبهم ،
لقد نراى لهم ، في انتصار محمد ودعوته ، فقدان الأجداد ، وخسارة
الأموال ، فقاموا ينجبطون خبط عشواء . وبدأت حربهم له : بتكذيبه
واتهامه ، والخط من شأنه . ووجهوا إليه شعراءهم بالقدح والهجاء ،
وأوفدوا إليه من يسألونه المعجزات ، فطالبوه ، بمعجزات موسى
وعيسى ، وأن يأنبهم بكتاب من الله مخطوط ، يقرأونه ، وأن يقلب
جبال مكة ذهباً ، وأن يحيى الموتى ، أو يسير الجبال . كل ذلك في جو

من الهزؤ والسخرية ، لإضعاف شأنه ، والخط من مكانته بين أصحابه ،
وبين أهل مكة . وكان محمد (ص) يجيب بقول الله تعالى : « قل لا أملك
لنفسي نفعا ولا ضرا ، إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم للغيب
لاستكثر من الخبر ، وما مسنى للسوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم
يؤمنون » .

لم تكن قريش الممركة لنهم بأمر الإسلام ونبيه ، ومن اجتمع
عليه من النفر ، إلا قليلا ، لولا أن بدأ محمد يطعن أصنامهم وأوثانهم ،
وينفي ألوهيتها وقديسيتها ، ويقرر أنها حجارة . لا تنفع ولا تضر ، وشعرت
قريش بخطر ذلك ، فلم تسكت عن تحقير للنبي (ص) لآلهتها ، وآلهة
آبائهما وأجدادهما ، وتقدم وفد يمثل المشركين في مكة - ومنهم : أبو جهل ،
والوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة - إلى عمه ، أبي طالب ، وهو مثلهم ،
لم يتابع محمداً على دينه ، وقالوا له : « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد
سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وصفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه
عنا ، وإما أن تخل بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف ،
نكفيناك » فاحتار أبو طالب بين أن يكلم ابن أخيه . وقد مالا
الإيمان قلبه ، فيغضبه ، أو أن يتركه وشأنه . فيغضب قومه . وطالت حيرته .
ولم تجد قريش المشركة أثراً لو فدها الأول ، بل ما زالت ترى محمداً
مجد في دعونه ، ويشند في حربه للوثنية وللشرك ، ويجتمع حوله نفر
لا يفرق بين سيد منهم وعبد ، ولا بين قرشي ومولى : فقد أزال

للفوارق ، فزاد ذلك من غضبهم ، لأنه أطمع بهم الموالى وللعبيد ،
 وسار وفدهم إلى أبي طالب مرة ثانية ، وثالثة ، وقالوا له :
 « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد استهيناك من ابن
 أخيك ، فلم تنه عنا ، وإننا والله لانصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه
 أحلامنا ، وعيب آلهتنا . حتى تكفه عنا ، أو ننزله إياك ، حتى يهلك
 أحد الفريقين » . واشتد الأمر على أبي طالب ، وسمع تهديد
 قومه ، ورأى أن يطلع محمداً على ما يجري ، عساه يقدر ظروف عمه ،
 ويخفف من هجومه على آلهة قومه . وأتى بابن أخيه ، وقص عليه خبر
 قريش ، وأنهى حديثه بقوله : « فأبق علي ، وعلى نفسك ، ولا تحملي من
 الأمر ما لا أطيق » . وهنا تجلّى الإيمان في شخص الرسول الكريم ، وقد
 رأى ما يشبه الخذلان من أقرب الناس إليه ، وأكثرهم عطفاً عليه ،
 وأجاب عمه الجواب الحاسم ، مؤكداً له بعده عن كل خوف وإغراء .
 وقال : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في
 يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ،
 ما تركته » . وأغرورقت عيناه بدموع الأسى ، حين رأى من حماه
 صغيراً ، ينعهد عنه كبيراً ، وهو في ذلك لا يرجو الحماية إلا من الله ،
 أو يهلك في سبيله . وحركت كلمات الإيمان قلب أبي طالب . فقال
 لابن أخيه : « اذهب ، يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك
 لشيء تكرهه أبداً » .

أخذت قريش ، وقد بثت من وساطة أبي طالب ، نشن حملات الإيذاء والاضطهاد ضد محمد وصحبه : فهذا أحدهم يشتد على محمد هند للكعبة ، ويحاول خنقه ، فيتخلص منه ، بمساعدة أبي بكر . وهذا يلقي بالتراب عليه ، وهذا يسمعه كلام الهزؤ والسخرية . وهذا أبو جهل ، يمر بمحمد ، فيشتمه ، ويضربه ، ويعيب عليه دينه . وبسمع بالأمر عمه ، حمزة ، فتثور مروءته ، ويتحرك الإيمان في قلبه ، أمام صبر ابن أخيه ، وأخيه في الرضاع ، على أذى قومه ، ويسرع ، إلى الكعبة ، ويجده هناك أبا جهل ، فيضربه بالقوس ، ويشججه . ثم يسير إلى محمد . ويعلن إسلامه ، فيعتز به الإسلام ، ويفرح به المسلمون ، لما عرفوه عن جرأته وقوته .

لقد أصاب الأذى والعذاب كل من اعتنق الإسلام ، لاسيما تلك لفئة المستضعفة من الموالي والعبيد ، وطارد المشر كون أوائل المسلمين في كل مكان ، وتفننوا في تعذيبهم : فهذا يأتي بعبده « بلال الحبشي » فيطرحه أرضاً ، تحت الشمس المحرقة ، ويضع للصخر على صدره ، ويقول له : « اكفر بمحمد وربه » . فلا يزيد العذاب إلا إيماناً ، ويقول « أحد ، أحد » ، إلى أن اشتراه أبو بكر ، وأعتقه . وكان المشر كون من قريش يخرجون « عمار بن ياسر » ، وأمه وأباه ، إلى ظاهر مكة ويعذبونهم فوق الرمال المتوهجة ، ويمر بهم محمد (ص) ، فيقول : « صبر آل ياسر

مؤعدكم الجنة». ولما مات الأب، ياسر، من شدة للعذاب، أغلظت زوجته «سمية» للقول لأبي جهل، فطعنها بحربة فقتلها. فكانت أول شهيدة في الإسلام. وبقي «عمار» تحت للسياط وللعذيب، حتى كتب الله للنصر للإسلام. كذلك عذب «خباب بن الأرت»، على للرخصاء كما عذبت جارية موامل بن عدي، واسمها «لبينة»، كان يعذبها عمر بن الخطاب حتى يمل فيقول: «إني لم أدعك إلا سامة»، وبقيت في هذا للعذاب حتى اشترأها أبو بكر، فأعتقها.

وكانت آخر محاولة لقريش المشركة مع أبي طالب أن سارت إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة تقول له: «يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى في قريش، وأجمله، فاتخذوه ولدًا، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، للذي خالف دينك. ودين آبائك، وفرق جماعة قومك. وسفه أحمالهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل». فيجيب أبو طالب: «والله لبئس ما تسومونني، أنعطوني ابنكم، أعذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا، والله، ما لا يكون أبدًا». واشتد الجدل والنقاش، وخرجت قريش، ممثلة في وفدها، غاضبة، وقد عزم على الكيد لمحمد وصحبه. أما أبو طالب فقد دعا بني هاشم وبني المطلب إلى نصرة ابن أخيه، وحمايته من كيد المشركين، فأجابته الجميع إلى ما دعاهم إليه، إلا أبو لهب، الذي إنضم إلى الخصوم.

خاف مشركو قريش انتشار دعوة الإسلام بين العرب، وفي

كل صباح يسمعون اعتناق عدد جديد منهم لهذا الدين ، وقد سحرهم آياته ، ببلاغتها ومعانيها ، ودفعتهم إلى الكفر بآلهتهم . فزرعت قواعد الشرك في قلوبهم : إنه يدعوهم إلى عبادة خالق السموات والأرض ، ومدير الكون ، ومنظم أفلاكه وكواكبه : (لا للشمس ينبغي لها أن تدرك للقمر ، ولا الليل سابق للنهار ، وكل في فلك يسبحون) « وفي أنفسكم أفلا تنظرون ؟ » إنها دعوة للتفكير ، تدفع المجاهدين ، غير المعاندين ، إلى سلوك طريق العقل ، فيكفرون بأوثانهم وأصنامهم ، ويقفون أمام آيات الله ، تتلى عليهم « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » . ثم يقفون مرة أخرى مشدوهين ، يستمعون إلى قوله تعالى : « إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفي خلقكم ، وما يبث من دابة ، آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من رزق ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ، فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا ، كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم » . وكانت هذه الآيات أشد ما ينحشاه مشركو قريش على قلوب العرب ، خاصة في موسم الحج ، أن تسحرهم ، فينقلبوا مسلمين .

اجتمع نفر من قريش ، ومعهم الوليد بن المغيرة (المخزومي) ،
للذي قال لهم : « بامعشر قريش ، إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود
للعرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه
رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه
بعضاً . » فقالوا له : « فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، واقم لنا رأياً ، نقل به . »
قال : « بل أنتم فقولوا ، أسمع . » قالوا : نقول ، كاهن . قال : « والله
ما هو بكاهن ، لقد رأينا للكهان ، فما بزمزمة للكاهن ولا سجعته . » قالوا
« فنقول مجنون » قال : « ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما
هو بخنقه ولا تخالجه (تحرك الأعضاء من غير إرادة) ولا وسوسته »
قالوا : « فنقول شاعر . » قال « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا للشعر كله :
رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر . »
قالوا : « فنقول ساحر . » قال : « ما هو بساحر ، لقد رأينا للسحار ، فما هو
بنفثهم ولا عقدهم . » قالوا : « فما نقول ، يا أبا عبد شمس ؟ » قال :
« والله ، إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لحزن (كثير الشعب والأطراف) ،
وإن فرعه لجناه (أي فيه ثمر يجنى) ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً ،
إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر ،
جاء بقوله ، هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين
المرء وزوجه ، وبين المرء وحشيرته . » ففترقوا عنه ، وجعلوا يجلسون
بسبل للناس ، حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ،
وذكروا له أمره .

لم تفلح محاولات مشركي قريش في منع انتشار الإسلام ، على
 الرغم من استمرار أعمال الاضطهاد والتعذيب ضد المسلمين ونبههم .
 ففكر القوم في محاولة أخيرة ، لإغراء محمد بالجاه والمال ، اصرفه عن
 دعوته ، وكان سفير قريش ، في هذه المحاولة ، عتبة بن ربيعة ، فاجتمع
 إليه ، وقال له : « يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من المكان في
 النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعانهم . فاسمع مني
 أعرض عليك أموراً ، لعلك تقبل بعضها : إن كنت إنما تريد بهذا
 الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت
 تريد تشريفاً ، سودناك علينا ، فلا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد
 ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً (تابع من الجن)
 نراه ، لا نستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك اللطب ، وبدلنا فيه أموالنا
 حتى نبرأ . » وعندما فرغ عتبة من كلامه ، تلا عليه رسول الله (ص)
 آيات من سورة السجدة . ثم انصرف عتبة ، مأخوذاً بما رأى وسمع .
 وكان مشركي قريش أدركوا ذلك في وجهه ، فسألوه : « ما وراءك
 يا أبا الوليد ؟ » قال : « ورأيتني أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله
 قط . والله ما هو الشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يدعني قريش
 أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ،
 فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله ، الذي سمعت منه ، نبأ عظيم ، فإن نصبه
 العرب ، فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ،

وعزّه عزكم ، كنتم أسعد الناس به » . قالوا : « سمحرك والله ،
يا أبا الوليد ، بلسانه » . قال : « هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . »

تألم الرسول (ص) لما كان يصيب المسلمين ، والمستضعفين منهم
خاصة ، من إيذاء قريش وتعذيبهم لهم ، وفكر في اختيار منطقة
يهاجرون إليها ، وفضل أرض الحبشة ، فقال لهم : (لو خرجتم إلى أرض
الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل
الله لكم فرجاً مما أنتم فيه) . ومن الطبيعي ألا يفكر محمد (ص) في
منطقة عربية ، يهاجر إليها المسلمون ، فعظم المناطق على الوثنية ،
ولقريش بين قبائلها المنزلة الرفيعة ، فلن يقف الأذى ضد المسلمين .
وحتى في مناطق النصارى واليهود ، سيكون النظر إليهم على أنهم منافسون
أما الحبشة فهي بعيدة عن قبضة قريش ، مع سهولة للسفر إليها .

بدأت الهجرة إلى الحبشة خفية . فهاجر عشرة رجال ، (وقيل أحد عشر
رجلاً) . وأربع نساء . وكانت أول هجرة في سبيل الإسلام . وازداد عدد
المهاجرين ، حتى بلغ ثلاثة وثمانين رجلاً ، وسبع عشرة امرأة
وكثير من الأطفال . ومن مشاهير المهاجرين : عثمان بن عفان ، وزوجه ، رقية ،
بنت الرسول ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وجعفر بن
أبي طالب ، وعمر بن سعيد بن العاص ، وأخوه خالد . وقد وجدوا
عند النجاشي الإكرام والأمن والحماية .

خاف مشركو قريش من هجرة المسلمين إلى الحبشة . وربما قلق
بعضهم من قيام تحالف إسلامي حبشي ضد مكة ، وأصنامها . ويذكر

ابن هشام أنه لما رأى أهل قريش أن أصحاب رسول الله (ص) قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، ائتمروا فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين جليدين إلى النجاشي ، ليخرجهم من بلاده ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص . ووضعت خطة المؤامرة على حمل هدايا ثمينة للنجاشي وبطارقته ، على أن تقدم الهدايا إلى البطارقة ، قبل تقديمها للنجاشي ، ليضمنوا تأييدهم لدى النجاشي . ونفذت الخطة ، واجتمع وفد قريش مع البطارقة ، وتمت المؤامرة ضد المهاجرين المسلمين . وفي الوقت المحدد ، مثل مندوبا قريش أمام النجاشي ، وقالوا له : « أيها الملك ! إنه قد ضوى (أتى) إلى بلدك منا علمان سهـفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم ، لتردهم عليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . » وأيد البطارقة هذه الأقوال - حسب الخطة المرسومة - وقالوا للنجاشي : « أيها الملك ! قومهم أعلى بهم عيناً . وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم » . ووقف للنجاشي موقف الحاكم للعدل ، وأبى أن يحقق رغبة رسولى قريش إليه ، قيل أن يسمع آراء الطرف الآخر من هؤلاء المسلمين ، الملتجئين إلى جواره .

طلب النجاشي بعض هؤلاء المهاجرين إلى بلده ، فأحضروا إليه ،

فسألهم عن هذا الدين الجديد ، الذي اعتنقوه ، فكان المتكلم باسمهم «جعفر بن أبي طالب» ، فقال : «أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي للفواحش . . كنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخضع ما كنا نعبد ، نحن وآباؤنا ، من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة للرحم ، وحسن الجوار ، ولكف عن المحارم وللدماء ، ونهانا عن للفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . . فصدقناه ، وآمنابه ، واتبعناه ، على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان ، من عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك . فقال له النجاشي : «هل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرأه علينا ؟ قال جعفر : نعم ، وأخذ يتلو عليه سورة مريم ، إلى قوله تعالى : « فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ، قال إني عبد الله ، آتاني الكتاب ، وجعلني نبيا ، وجعلني مباركا ، أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ، ما دمت حيا ، وبرا بوالدي ، ولم يجعلني جبارا شقيا ، والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » . وخشع للنجاشي ،

وبطارقته ، لهذه الآيات ، وقال : « إن هذا والذي جاء به موسى ،
ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما » .

خرج وفد المشركين غاضباً ، وقال عمرو بن العاص : « والله
لآتينه هذا عنهم بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون
أن عيسى بن مريم عبد » . وذهب في اليوم التالي ، فقابل للنجاشي ،
وقال له : « أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ،
فأرسل إليهم وسلهم عما يقولون فيه » . وأراد للنجاشي للتحقق مما
قاله ابن العاص ، فطلب المهاجرين ثانياً ، فأحضروا إليه ، فسألهم عما
يقولون في عيسى بن مريم ، فأجابه جعفر بن أبي طالب ، بقوله « نقول
فيه للذي جاء به نبينا (ص) هو عبدالله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته ،
ألقاها إلى مريم للعدراء للبتول » . فقال للنجاشي : « والله ما عدا عيسى
بن مريم ، اذهبوا فأنتم شايئون (آمنون) بأرضي ، من سبكم غرم ،
وانصرفوا .

وهكذا وجد للنجاشي في هذه الفتنة ، الملتجئة إليه ، فئة تؤمن بالله ،
وتؤمن بنبوة عيسى ، وطهارة أمه ، وهم أقرب إليه ، وإلى دينه ، من
أولئك الوثنيين ، من مشركي قريش . وأخفقت سفارة قريش في
مهمتها ، عند للنجاشي ، وعاد للوفد إلى مكة بجر أذيال الحبيبة والفضيل .
ولما سمع المهاجرون في الحبشة بإسلام عمر بن الخطاب ، وقوة
المسلمين ، ظنوا أن موجة الاضطهاد ضدهم قد انتهت في مكة ، فرجع
بعضهم ، وقيل أنهم رجعوا جميعاً . لكنهم وجدوا أن الأذى ما زال

يلحق المستضعفين من المسلمين ، فعادوا إلى الحبشة . وعاد معهم عدد جديد من الفجارين من اضطهاد قريش .

وفي السنة ، التي أسلم فيها حمزة ، عم الرسول (ص) ، وهي السنة الخامسة للبعثة ، أسلم عمر بن الخطاب ، وقد اشتد ساعد المسلمين بهذين الرجلين ، لما عرف عنهما من قوة وجسارة بين قومهما . وقد دخل عمر الإسلام بنفس الحمية ، التي كان يحارب بها ، بل ازداد حماساً واندفاعاً لنصرة الدين ، للذي اعتنقه . ولم يكن بين قريش من يجرؤ على معارضته ، أو للتعرض له . وقد روى عيسى بن هشام ، أن عمر ابن الخطاب خرج متوشحاً سيفه ، يريد رسول الله (ص) ، فلقبه نعيم ابن عبد الله ، فقال له : « أين تريد يا عمر ؟ » فقال : « أريد محمداً ، هذا الصابي » ، الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وهاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله . فقال له نعيم : « والله لقد نرتك نفسك يا عمر ، أترى عبد مناف تاركك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ » قال : « وأي أهل بيتي ؟ » قال : « خنتك ، وابن عمك ، سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك ، فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما » . فرجع عمر إلى أخته وخنته ، وكان عندهما « خباب بن الأثر » ، يقرأ لهما ، في صحيفة معه ، سورة طه ، فلما سمعوا صوت عمر ، اختفى خباب في البيت ، وأخفت فاطمة للصحيفة ، وكان عمر قد سمع شيئاً من القراءة ،

لدخل ، وقال : « ما هذه الهينة التي سمعت ؟ » قال له : « ما سمعت شيئاً » . قال : « بل والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه » . وبطش بختة ، سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها ، فضر بها . عند ذاك قال له : « نعم قد أسلمنا ، وآمنا بالله ورسوله . فاصنع ما بدا لك . » وندم عمر على ضربه أخته ، وارعوى ، فقال : « اعطيني هذه الصحيفة ، لاني سمعتكم تقرأون آناً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد . فقالت له أخته : « إنا نخشاك عليها » . فأقسم لها أن يردّها إليها ، بعد قراءتها . فقالت له أخته : « إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسه إلا المطهرون » . فقام عمر . فاعتسل ، فأعطته الصحيفة ، فلما قرأ منها جزءاً قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه » . فخرج خباب . عند سماعه كلام عمر ، وقال له : « يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فأني سمعته أمس يقول : « اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر » . فقال له عمر : « دلني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم » . فقال خباب : « هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه » . فحمل عمر سيفه فتوشحه ، وعمد إلى الرسول (ص) وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، ونظر إليه أحدهم ، من خلل الباب ، أسرع إلى الرسول (ص) فرعاه ، وقال : « يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب ، متوشحاً بالسيف » . فقال حمزة : « فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه » .

فقال رسول الله (ص) : « أئذن له » فأذن له للرجل ، ونهض إليه رسول الله ، حتى لقيه في الحجرة ، وقال له : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر : « يا رسول الله جئت لك بأهل من بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر للرسول تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم .

وكان لإسلام عمر ، بعد إسلام حمزة ، أثر كبير على المسلمين ، فقبولت مغنوياتهم . ولم يخف عمر إسلامه ، بل جهر به ، وأراد أن يتحدى مشركي قريش ، فأبى إلا أن يصلي مع المسلمين عند الكعبة . ولم يكن المسلمون قد فعلوا ذلك من قبل .

تأمر مشركو قريش ، بعد أن رأوا نمو قوة الإسلام ، وازدياد عدد المسلمين . واتفقوا على إعلان مقاطعة بني هاشم ، وبني عبد المطلب ، وهم للذين أعلنوا حمايتهم لابنهم ، محمد (ص) ، وذلك بأن تقطع قريش كل صلة بهم : فلا تبيعهم ، ولا تشتري منهم ، ولا تزأوهم . وكتب المتآمرون من رجال قريش صحيفة بأمر هذه المقاطعة ، ووضعوها في جوف الكعبة ، نو كيداً لعهدهم . وبقيت هذه المقاطعة عامين أو ثلاثة اجتمع خلالها بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، في شعب أبي طالب ، ولم يشذ عنهم إلا أبو لهب ، الذي مالا قريشاً على عشيرته الأقربين . وقد تحمل الهاشميون مر للعذاب ، خلال فترة المقاطعة ، واشتد عليهم الجوع ، وكانت قريش تنتظر أن يتخلى بنو هاشم عن محمد ، فيهنون عندئذ عليها أمره ، ولكن بعض زعماء القوم أرادوا نقض الصحيفة ، وإنهاء المقاطعة ،

ومنهم : هشام بن عمرو بن ربيعة ، الذي أشفق على محمد وصحبه في تلك الشعب ، فكان يأتي بالبعير محملاً بالطعام ، ويسير به في الليل ، حتى يصل به إلى فم الشعب ، فيخلع خطامه ، ثم يضرب على جنبه ، فيدخل للبعير عليهم . وأخيراً قصد هشام هذا زهير بن أبي أمية ، وكانت أمه ، هاتكة بنت عبد المطلب ، عمة للرسول (ص) ، فقال له : « يا زهير ، أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس للثياب ، وتنكح للنساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ؟ »

وتعاهد هشام وزهير على نقض الصحيفة ، واتفق معهما على ذلك : المطعم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، واتفق الخمسة على خطة لنقض الصحيفة ، وذهب زهير إلى الكعبة ، فطاف بها سبعاً ، ثم نادى بالناس : « يا أهل مكة ، أنا كل الطعام ، وتلبس للثياب ، وبنو هاشم هلكي ، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة للمقاطعة . وصاح به أبو جهل ، وقال : « كذبت والله لا تشق » فصاح المتفقون الأربعة ، وأبدوا زهيراً . وشعر أبو جهل بالجماع المقوم على تمزيق الصحيفة ، وخشى مخالفتهم ، وقام المطعم ابن عدي بتمزيق الصحيفة ، وقيل أنه لم يجد من كتابتها إلا « باسمك اللهم » ، وقد أنت الأرضة على البقية منها . وانتهت بذلك المقاطعة ، هاد محمد (ص) وبنو هاشم إلى مكة . وبعد عدة شهور من انتهاء المقاطعة ، وعودة محمد وأقاربه من الشعب إلى مكة ، فجع الرسول

(ص) بموت عمه ، أبي طالب ، وقد نيف على الثمانين ، وخمس بموته حامياً ، يمنع عنه أذى قريش .

وقد روى أن بعض أشرف قريش قصدوا أبا طالب ، قبيل وفاته ، طالبين منه أن يضع حداً بينهم وبين ابن أخيه ، وقبلوا أن يكفوا عنه ، فليكف عن آلهتهم « وليدعنا وديننا وندعه ودينه » ، وكان الجواب من محمد (ص) بالذات : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » . وأخفقت بذلك محاولتهم ، وقيل إن أبا طالب كان يعتقد في صدق رسالة ابن أخيه ، ولكنه كان يخشى للسب واللعار ، إذا ترك ما كان يعبد آباؤه .

وبعد وفاة أبي طالب ، فجع محمد (ص) بوفاة زوجته خديجة ، فحسر بموتها للقلب الكبير ، وللصدر الحنون ، وللنصير المؤمن ، ومن كان للرسول (ص) يجد في قربها ما يخفف عنه أذى قومه ، واضطهاد المشركين له ، ولدعوته .

وكانت هاتان الفاجعتان في عام واحد ، سمي عام الحزن ، ولكن محمداً صبر على قضاء ربه ، كما صبر على ازدياد أذى قومه ، وقد أغراهم به موت عمه أبي طالب . وقد روي عن الرسول (ص) قوله : « ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب » . وقد اعترضه أحد سفهاء قريش ، فرمى على رأسه تراباً ، فدخل الرسول (ص) إلى البيت فقامت بنته فاطمة تبكي ، وتغسل رأس أبيها من التراب ، فقال لها « لا تبكي بابنية ، فإن الله مانع أباك » .

ضاق الرسول الكريم (ص) ذرعاً بمشركي قريش ، وعنادهم ، وإصرارهم على شركهم ووثنيهم ، وطال صبره على أذاهم ، وفكر في الذهاب إلى الطائف ، لعله يجد للنصرة من قبيلة ثقيف ، فيشتد بها أمره وسار وحيداً ، دون أن يعلم أحد بأمره ، وعرض على بعض زعماء بني ثقيف دينه ، ودعاهم إلى الإسلام ، فكان ردهم قبيحاً ، فرجاهم أن يكتموا أمره : فقد كره أن تسمع قريش بما فعل بنو ثقيف ، فيزيد ذلك من إبدائهم له ، ويشمتون به . لكن أولئك قاموا بإغراء سفهائهم به ، يسبونهم ، ويصيحون في وجهه ، حتى اضطر للالتجاء إلى حائط لعتبة وشيبه ، ابني ربيعة ، احتسب به ، وعاد للسفهاء عنه .

وأصابه إعياء ، شديد ، وحزن عظيم ، فالتجأ إلى ربه متضرعاً ، وهو يقول : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهمني ، أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك ، الذي أشرقت له الظلمات ، وصالح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل علي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) . ووصل خبره إلى قريش ، وزاد في غضبها عليه محاولته الاستنصار بثقيف ، فعزم المشركون على منعه من دخول مكة فطلب محمد (ص) الحماية من « المطعم بن عدي » ، فخرج هذا بالأسلح مع بنيهِ ، وأدخلوا محمداً في حمايتهم ، إلى مكة . لكن موجة الأذى

والاضطهاد استمرت تلاحق المسلمين المستضعفين، وللرسول الأمين .
لقد أفاد الرسول (ص) من مواسم الحج ، فصار يخرج ، فيلتقي
بوفود القبائل ، الآتية إلى مكة ، ومنهم من سمع عن دعوته ، فكان
يدعوهم إلى ترك ما كان يعبد أبائهم من الأصنام والأوثان ، وأن
يؤمنوا بالله الواحد للقهار ، وألا يشركوا به شيئاً . وكان عمه ، أبو لهب
يخطب في الوفود ، مكذباً ابن أخيه ، فيقول : (إنما يدعوكم إلى أن
تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ،
فلا تطيعوه) . أما تلك الوفود فكانت تجيب محمداً بالرفض ، أو بالرد
للقبيل .

في ليلة ، كان يقضيها في بيت ابنة عمه ، هند بنت أبي طالب ، وكنيتها
أم هانيء ، أسرى برسول الله (ص) من مكة إلى بيت المقدس ، ونزلت
في ذلك الآية : (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى
المسجد الأقصى ، الذي باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه للسميع
البصير) . وقد ورد المعراج في أحاديث للرسول (ص) ، وهو عروجه
إلى السماء . وقد ذكرت هند ذلك بقولها : « إن رسول الله نام عندي
تلك الليلة ، في بيتي ، فصلى للعشاء الآخرة ، ثم نام ، ونحنا . فلما كان قبيل
الفجر ، أهبنا رسول الله ، فلما صلى للصبح ، وصلينا معه ، قال : يا أم
هانيء ، لقد صليت معكم للعشاء الآخرة ، كما رأيت بهذا الوادي ، ثم
جئت بيت المقدس ، فصليت فيه ، ثم قد صليت للغداة معكم الآن ، كما

ترين . فقلت له : « يابني الله ، لانه حدث به الناس فيكذبوك » . قال :
« والله لأحدثهموه » .

واختلف للفقهاء حول الإسرائاء : هل كان بروح للرسول
(ص) ؟ أم بروحه وجسده ؟ أما عائشة فروي أنها قالت : ما فقد جسد
رسول الله (ص) ، ولكن الله أسرى بروحه . وسئل معاوية بن أبي سفيان
عن الإسرائاء فقال : « كانت رؤيا من الله صادقة » . ومن للطبيعي أن
تكذب قريش رسول الله (ص) في هذا الحادث . ومن للطبيعي أن
يقف بعض المسلمين موقف للذهول وللشك ، عند سماعهم بالإسرائاء
والمعراج ، وذلك أن هؤلاء وأولئك إنما كانوا يقفون عند الحدود
المادية ، ويجحدون عندئذ استحالة وقوع هذا الحادث ، ولن يستطيع مثل
هذا النفر من البشر أن يتجاوزوا بتفكيرهم هذه الحدود ، وأن يصلوا
إلى المجالات الروحية للواسعة .

أما أبو بكر الصديق ، عندما حدثوه بذلك ، قال : « والله اثنى كان
قد قاله ، فقد صدق » ، ثقة منه بالرسول الأمين ، وإيمانا بصدق دعوته .
وارقد بعض المسلمين عن إسلامهم ، على أثر حديث الإسرائاء . وبعد
حادثة الإسرائاء مباشرة ، فرضت الصلاة ، بأوقاتها الخمسة المعروفة ،
وبعدد ركعاتها . وقد أخبر الرسول (ص) بأن جبريل عليه السلام نزل ،
وعلمه الصلاة ، وحدد له أوقاتها ، وعدد ركعاتها . وكان محمد (ص) ،
حتى ذلك الوقت ، يصلي ركعتين صباحاً ، ومثلها مساءً ، كصلاة
إبراهيم عليه السلام .

لقد كانت هناك عوامل هذة ، جعلت أهل يثرب أقرب لتقبل دعوة الإسلام من أهل مكة : فلم تكن ، كديانة سماوية ، تدعو إلى التوحيد وترك الوثنية والشرك ، بعيدة عن إدراكهم أو مفاهيمهم : فقد كان عرب يثرب من الأوس والخزرج مجاورون لليهود ، وكثرا ما سمعوا عن دينهم السماوي ، وما فيه من توحيد وإيمان بالبعث والحساب والأنبياء وللكتب المقدسة ، فلم تكن دعوة محمد غريبة عنهم ، ولم تصدمهم بمفاهيمها ومبادئها ، كما فعلت بمشركي مكة . يضاف إلى ذلك عامل المنافسة بين مكة ويثرب ، فقد كان عرب يثرب من أزد اليمن ، وكانوا يجحدون في مكة مدينة تنافسهم فيها قریش ، وتسلمو عليهم بكحبثها ، ومركزها للدينى بين العرب . وعلى الرغم من فقر مكة ، وخصب يثرب ، فقد عوضت الأولى نقصها بأسواقها للتجارة ، وقدسينها الدينية ، واستأثرت باهتمام العرب ، وغدت محجاً لهم ، فازدهر اقتصادها ، وتدفقت الأرباح على تجارتها ، فكان للعامل الاقتصادي يلعب دوراً كبيراً في المنافسة بين المدينتين . وكان أهل يثرب يجحدون في الدعوة الجديدة ، إلى جانب إيمانهم بصدق رسـولها ، دعوة ربها تعطيهم مركز للصدارة ، لتصبح يثرب محج للعرب ، فترتفع على منافستها ، مكة . وكان هناك كذلك عامل سياسي : وهو ما كانت عليه قبيلتا الأوس والخزرج من نزاع مستمر ، حول للزعامة والحكم ، مما لا يفيد منه إلا لليهود المقيمون بأرضهم ؛ قد وجدوا في الدين الجديد دعوة ، توحد صفوفهم ، وتجمع كلمتهم ، وتنهى حالة للنزاع

والقتال بينهم . وربما كانت هزيمة الخزرج ، في آخر تلك المعارك ،
 (يوم بعث) ، من الأسباب التي جعلتها أكثر إقبالا على الإسلام ،
 واعتناقاً له ، من الأوس ، خاصة وأن صاحب الدعوة « محمد بن
 عبدالله » على الرغم من أنه من قريش لم يكن غريباً عن الخزرج :
 فجدّه الثاني ، هاشم ، كان قد تزوج إحدى بنات الخزرج ، وجدّه ،
 عبد المطلب (شيبه) ، تربى في رعاية أخواله ، الخزرجيين ، في يثرب ،
 وأبوه ، عبدالله ، توفي ، ودفن ، في يثرب ، وأمه زارت يثرب ، وكان
 هو برفقتها ، وتوفيت ، ودفنت في إحدى قرى يثرب (الأبواء) . وعلى
 ذلك فلم يكن محمد مجهولاً من البثريين عامة ، ومن أبناء الخزرج
 خاصة : فهو حفيد أختهم ، وأخواله من بني النجار من أسرة الخزرج .
 هذا بالإضافة إلى ما سمعوه عن سيرته وصدقه وأمانته في قومه . وقد
 روي ابن هشام في السيرة عن بعض الأنصار من البثريين قولهم : (لقد
 دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله وهداه ، ما كنا نسمع من رجال لليهود :
 كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس
 لنا . وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ،
 قالوا لنا : « إنه تقارب زمان نبي ، يبعث الآن ، نقتلكم معه ، قتل عاد
 وإرم ... » فلما بعث الله رسوله (ص) أجبناه ، حين دعانا إلى الله ، وعرفنا
 ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فأمننا به ، وكفروا به ...) .

وفي للعام التالي ليوم بعث ، أي في السنة الحادية عشر للبعثة ، أقبل
 جماعة من الخزرج ، في موسم الحج ، بينهم ستة من سادات الخزرج ،
 وكانوا يبحثون عن حليف ، يوحد كلمتهم مع الأوس ، أو يساعدهم

في التغلب على خصومهم ، الأوسيين . فلقبهم —
 الرسول (ص) ، عند العقبة — وهي موضع بين منى ومكة ،
 وتبعد عن مكة حوالي ميلين — ودعاهم إلى الإسلام ، فقال بعضهم
 لبعض : « والله إنه للبني ، الذي تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم إليه » .
 وأجاب هذا للنفر محمداً (ص) إلى دعوته ، واعتنقوا دينه ، وآمنوا
 بنبوته ، وقالوا له : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة
 وللشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم ، فنذعوهم
 إلى أمرك ، ونعرض عليهم للذي أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم
 الله عليه ، فلا رجل أعز منك » . انصرف هؤلاء عن رسول الله (ص)
 راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة إلى قومهم ،
 ذكروا لهم رسول الله (ص) ، ودععوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ،
 فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله (ص) .
 كان الجوع ، في يثرب ، مهيباً لتقبل دعوة الإسلام ، وتفتحت قلوب
 لليثريين ، من الأوس والخزرج ، للإسلام ، ولم يجدوا في مبادئه شيئاً
 خريباً عما سمعوه من أصحاب الكتب السماوية ، وكأنهم كانوا ينتظرون
 ما يوحد كلمتهم ، ويجمع قلوبهم ، بعد طول نزاع وخلاف ، فأملوا
 أن يكون الدين الجديد موحداً لهم ، وجامعاً لكلمتهم ، فأقبلوا عليه .
 وفي الموسم التالي للحج ، أي في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية ،
 التقى رسول الله (ص) باثني عشر رجلاً من أهل يثرب ، عشرة من
 الخزرج ، واثنيان من الأوس ، في موضع العقبة ، فأعلنوا إسلامهم ، وبايعوا
 الرسول (ص) . وذكر أن هذه البيعة حضرها « عفراء بنت عبيد ابن
 ثعلبة » ، وكانت أول امرأة بايعت الرسول (ص) . وأرسل محمد (ص)

معهم مصعب بن عمير يقرئهم للقرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكانوا يسمونه المقرئ. وبعد عودة هذا النفر إلى يثرب، ازداد الإسلام انتشاراً بين أهلها، حتى لم تبق فيها دار إلا وفيها مسلمون ومسلمات.

لقد نجح مصعب في مهمته بيثرب، وعاد، قبل حلول موسم الحج، ليحمل إلى الرسول (ص) الأنبياء عن كثرة انتشار الإسلام بين أهل يثرب، وأخبره عن قدوم أفواج جديدة لتلقاه، في نفس مكان البيعة الأولى، أي في العقبة. وحن الميعاد وانتهى للناس من تأدية مراسيم الحج، وتساءل تحت جناح الظلام عشرات من أهل يثرب، وخرجوا من مكة خفية، وبلغ عددهم خمسة وسبعين نفساً (اثنتين وستين رجلاً من الخزرج، وأحد عشر من الأوس، وامرأتان)، وخرج مع محمد (ص) وإلى هذا الاجتماع، عمه، للعباس، وكان لا يزال على الشرك، وهو الذي بدأ للكلام، فقال: «يا معشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه أئبى إلا الانحياز إليكم، واللحاق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه، بعد الخروج به إليكم، فمن الآن، فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

ومما هو جدير بالملاحظة في هذا المقام، أن للعم، الذي خرج مع محمد (ص)، ليستوثق له من عزم أهل يثرب في نصرته، هو للعباس، الذي مازال على الشرك، ولم يخرج للعم المسلم، حمزه. وكأنه أراد

بذلك أن يفهم أهل يثرب ، ويؤكد لهم ، أن المشركين من بني هاشم لا يقلون عن المسلمين في رعايتهم لمحمد (ص) وحياتهم له .
أما قول العباس « وإنه أبي إلا الانحياز إليكم والحق بكم » ، فيدل على تفكير محمد (ص) في الحق بيثرب ، والاعتماد على أهلها ، وأنه ربما تحدث مع بني هاشم في ذلك ، فأرادوا الاطمئنان عليه ، فخرج معه للعباس ليتأكد من سلامة موقف الليثريين . وكان جواب أهل يثرب على كلام العباس :

« قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . » فتكلم للرسول (ص) ، فتلا شيئاً من القرآن الكريم ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . » فقام البراء بن معرور ، فأخذ بيده وقال : « نعم ، والذي بعثك بالحق ، لنمنعك مما تمنع منه أزرنا ، فبايعنا ، يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابر عن كابر . » فقاطع الكلام أبو الهيثم بن التيمم ، وقال : « يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال - يعني لليهود - حبالاً ، وإذا قاطعوها فهل عسيت ، إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ »

فتبسم رسول الله (ص) وقال : « بل للدم للدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . »
ونلاحظ هنا في قول أبي الهيثم صراحة العربي ، فحين رأى للعهد يكاد يتم في كلام البراء بن معرور ، أراد أن يوضح نقطة هامة تتصل بالمستقبل ، وبمحصير علاقهم بيهود يثرب . وكان جواب الرسول

(ص) صريحاً واضحاً ، بأن حلفه معهم على السراء والضراء : ثم قال للرسول (ص) لهم : « أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم » . فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

قال للعباس بن عباد بن نضلة الأنصاري : « يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا للرجل ؟ » قالوا : « نعم » . فقال : « أنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا هلكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً ، أسلمتموه ، فمن الآن . فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه ، عن نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير للدنيا والآخرة » فقالوا « فإننا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله ، إن نحن وفينا ؟ » قال : « الجنة » . قالوا « أبسط يدك » . فبسط يده ، فبايعوه .

بدأ للرسول (ص) ، فيبيعة للعقبة الثانية هذه ، أول خطوة في التنظيم باختيار للنقباء ، ويأخذ العهد على أنصاره من أهل يثرب ، أن يكون وإياهم يداً واحدة ، في السلم والحرب ، فأوجد بذلك قاعدة ، يعتمد عليها في يثرب ، ويركن إليها ، ويلتحق بها ، عند الضرورة .

وبحث قريش ، غداة للبيعة ، وقد وصلت أخبار مضطربة عن اجتماع محمد (ص) بأهل يثرب ، وأنكر مشركوا يثرب أن يكونوا قد اجتمعوا بصاحب مكة - محمد - وأقسموا على ذلك ، وهم لا يدرون حقيقة الخبر . وبعد ارتحال القوم ، جدت قريش في البحث ، وتأكدت أن اجتماعاً قد تم فعلاً ، بين محمد (ص) وجماهير من أهل يثرب ،

وخرجت نطلب للقوم ، فأدركت منهم سعد بن عبادة ، فأخذه
مشر كوقريش ، وربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله ، ثم أقبلوا به ، حتى
أدخلوه مكة ، يضربونه ، ويجذبونه بحمته ، وكان ذا شعر كثير . وقد
أنقلده ، وحماه من أبادي القوم ، « جبير بن مطعم بن عدي » ، والحرث
ابن أمية ، لأنه كان يجير لهما من يخرج بتجارتهما ، حين مرورهم إلى
يثرب ، في الطريق إلى الشام .

